

التطور وروح الدين

للاستاذ محمود الشرقاوى

« انا وجدنا الفارح قاصدا لصالح العباد . والاحكام
للعادة تدور معه حيثما دار . فري الله الواحد يمنع في
حال لا تكون فيه مصلحة . فاذا كان فيه مصلحة جاز »
والشاطي :

لكل دين من الأديان روح تسيطر على مجموعته ، وتتمشى في
أصوله وفروعه . وتميز دعوته وتربط أحكامه جميعا ، وتساق بين
أجزائه وتوجه تيارها الى غاية خاصة ،

والاسلام يمتاز من جميع الأديان بأنه دين عام خالد لا دين بعده
ولا رسالة . فهو لذلك قد جمع الله فيه كل ما تحتاج إليه البشرية
من الأصول لجميع ظروفها وأحوالها وأزمانها وأما كونها ، والحياة
البشرية متغيرة سريعة التحويل والانقلاب والسير في طريق التطور
من حال إلى حال ومن قديم إلى جديد ، وبالأخص في هذا
الذي تضاعف فيه سير الحضارة ، واختلطت الشعوب والانفكار
واستولى على الإنسانية كلها ما يشبه الحى في سرعة التحويل والانتقال
فهو روح الاسلام وغايته العليا تعارض سير الحضارة وتقدم
العالم ؟ وتلزم البشرية بالوقوف عند حال واحد لا تعداها إلا اذا
تركت الدين واستعاضت عنه بأشياء مدنية لا بد منها لاستكمال الحياة
البشرية واطراد السير فيها والتطور من حال إلى حال ؟ أما أنا فأجيب
بأن الاسلام لا يتعارض بتاتا مع سير البشرية وتحويلها . وأنه دين
لين واسع الأفق ، نستطيع أن نوفق بين روحه وبين كل مظهر من
مظاهر الحضارة ، وأن نجد في نصوصه ما يسير الاطوار المختلفة
التي تخطاها البشرية في عصورها المتباينة ، وهذا ما أريد أن
أكتب عنه في هذا الفصل ،

ويجب أن نلتفت إلى الفرق بين : روح الدين وغايته . وبين
أحكامه الفرعية وتطبيقها ، والفرق بين الدين كشعور وعقيدة وإيمان ،
والدين كتقاليد وأشخاص دينيين ومظاهر كنسية للحكم والسيطرة .
فروح الدين وجوهره هو الشيء الخالد الباقي الذي لا يتعارض مع
أى عصر . والذي تجد فيه كل حضارة وكل أمة في كل زمن ما يتفق
مع احتياجاتها ويعينها ويسددها في سبيل الغاية العليا والكمال البشرى

نصرخ وتناوه ، ووجهها أغبر قائم ، وجسمها يتلوى من الألم ،
ويدها على معدتها تضغطان بصعوبة وتقلص ، فصاحت أختها ما بك !
ما بك ؟ وضمتها الى صدرها تسندها من الوقوع فوقتنا على
الدرج معا . وهزتها ثانية ما بك ؟ فتمت بصعوبة مريرة متألة
« شربت سماء »

كلتان هما آخر ما نطقت . كلتان قلبتا العيد مأتما ، كلتان حولتا
شابة مليئة بالحياة والنشاط الى جثة هامدة لا تحس ولا تشعر . واجتمع
الاهل والصحب والخلائ حول ضحية العيد ، منهم من أسعفه البكاء .
فبكى ، ومنهم من حيرته الفاجعة فذرب لسانه بأسبابها وصاح يستلهم
الجثة جوابا عما حير فكره وصدع قلبه . ومنهم من وجم يستعرض
في وحدته صورا تتألى فلا تشعر ارتباطا فى تاليها ولا أثر المروءة
فى مخيلة . وأخير منهم من اختل توازن أعصابه وقعد القدرة على
حكمها ، فراح لسانه ينطق بكل ما يمر فى خاطره المضطرب المحموم
وفى الصباح جاءت صداقاتها بورودهم البيضاء وكانهم آتون
لعرسها ، ثم أودعوها حفرة ضيقة وعادوا جميعا وكل منهم يقظ أنه
فى حلم مروع يتلس اليقظة منه فلا يصحو . ومتى كانت الحياة
الا روى تتابع ! روى نراها افرادا فنختلف فى حقيقتها ، ورؤى
نراها جماعة فنجمع على حقيقتها ؟

أودعوها حضرتها ، وأودعوها معها ، ولكن متى دخل لسان
الناس أفواههم ؟ متى استراح لسان الناس فى أشد المواقف استدعاء
للاستراحة ؟ هل احترموا جلال الموت ؟ هل خشعوا امام فجعة
مريرة للاسرة بأجمعها ؟ كلا ! لم يخلق اللسان الا للكلام ، فاذا سك
لم يحقق الغرض من خلقه ، واذا لم يحقق جزء من المخلوقات الغرض
من خلقه فقد اختل نظام الكون كله !

وفى العيد تجتمع الاسرة لاعلى مائدة الافطار وانما حول قبرها
فى مدينة الاموات الهادئة ، وهناك تنادى فلا تجيب كما كانت تفعل
منذ عام ، وهناك تبكيها فلا تشاركها شعورها كما شاركتهم
الابتسامة والفرح منذ عام ، وانما ترفرف روحها من عليائها رائحة
غادية لا ترتبك ولا تضطرب ، فليس لديها ما تخفيه وقد حجبت الفناء
بأساره الكثيفة المظلمة .

سهر القلبواى

الذى تسير اليه ، روح الدين وجوهره هو الشئ الذى لا يأتىه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وعلى هذا التهم نستطيع أن نجد في نصوص الدين الاسلامي وفي تاريخه أشياء تؤكد لنا أنه دين يستطيع أهله أن يجدوا فيه كل ما يتفق مع مظاهر الحضارة التى تغمرهم وتجذبهم اليها وتستولى عليهم وعلى جميع الدنيا طوعاً أو كرها .

وهذه أشياء أذكرها تأكيداً ما أقول وتفصح عما أريد :

هذه المسيرة للزمن ، وتطبيق الأحكام على ملابسات الأحوال والظروف واختلافاتها . مع المحافظة على جوهر النصوص وروح الدين . نجدها عند شخصيات في قلبها بصيرة للوقوف على مرامها وإدراك الغاية منها وعدم التقيد بحرفيتها ، ونجدها في بيئة تختلف عن البيئة التى عرفنا فيها هذه النصوص ودرسنا مآلاتها فيها وما استرشدت فيه بحاجاتها وحدودها العقلية والمدنية ومميزات الجغرافية والتاريخية .

فتلاً إذا كنا في عصرهين لئن نحتاج فيه إلى زيادة الانجاب والنسل ، نجد من روح الاسلام ما يشجعنا على التكاثر والتاسل والنماء . وإن كنا في عصر عسير محرج ضيق نحتاج فيه إلى القصد في الانجاب والالتفات فيه إلى الكيفية لا إلى الكمية . فنجد من روح الاسلام ما يجعلنا نخفف من نسلنا ونثقل على ما نريد . بل نمتنع منه إذ نريد . نجد صحابياً جليلاً وحاكماً قادراً يبيع لنا التقليل من النسل . بل يوشك أن ينهانا عن العيال : « يا معشر الناس : إياكم وخلالا أربعة ، فانهادعو إلى النصب بعد الراحة ، وإلى الضيق بعد السعة ، وإلى المدة بعد العزة ، إياكم وكثرة العيال ، وإخفاض الحال . . . الخ ، (١) »

وإذا كنا في عصر يتشدد أهله في علاقاتهم الزوجية ولا يمتنون برباط الأسرة ، ويعرفون أن أبغض الحلال إلى الله الطلاق ، فنحن نستطيع أن نجد في أحكام الإمام والخليفة عمر بن الخطاب ما يجعل الطلاق الثلاث بلفظ واحد يقع ثلاثاً ، وإذا كنا في عصر مثل عصرنا الحاضر وهنت فيه العلاقات الزوجية واضطرب رباطها وأصبحت ألفاظ الطلاق على كل لسان ، فنحن نستطيع أن نجعل الطلاق

الثلاث بلفظ واحد يقع طلقوا واحدة ، ونجد في نصوص الاسلام ما يبيح لنا ذلك كما وجدنا ما أباح لنا الأول : كان الطلاق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر الصديق وستين من خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة ، فقال عمر بن الخطاب : إن الناس قد استعجلوا في أمر قد كانت لهم فيه أناة ، فلو أمضيناه عليهم ؟ فأمضاه عليهم « (١) » وهذا ما فعلناه نحن في مصر ،

وإذا كنا في إقليم وفي مجتمع يلزمنا عمرة للرأس . وكان غيرنا من المسلمين في إقليم أو مجتمع يلزمهم عمرة للرأس خاصة غير عمرتنا ، أو يجعلهم يسبغون حاسرين ، نجد من روح الاسلام ما يجعلنا نلبس ما نشاء . ويجدون هم من روح الاسلام ما يجعلهم يلبسون ما شاؤوا أو يحسرون كما يشاؤون : « كل ما شئت واشرب ما شئت ما أخطأتك اثنتان : سرف أو غيلة ، (٢) »

الامام الشاطبي من أعلم الرجال في أصول الدين . ومن أبرعهم وأوسعهم ذهناً في تطبيق النصوص الدينية والموازنة بينها وبين الأحوال . وله كلام يجب على كل رجل من رجال الدين أن يتدبره ويعتبره ، لما يدل عليه من فهم جيد لروح الاسلام ومسارته لكل عصر وكل حضارة . وطواعية أحكامه ونصوصه لأن توافقي كل حضارة وكل جيل .

يقول الشاطبي : « ... والمسكوت عنه من الشارع لا يقتضى مخالفة . ولا يفهم للشارع قصداً دون ضده وخلافه . فإذا كان كذلك رجعنا إلى النظر في وجوه المصالح . فما وجدنا فيه مصلحة قبلناه إعمالاً للمصالح المرسله . وما وجدنا فيه مفسدة تركناه إعمالاً للمصالح أيضاً . وما لم نجد فيه هذا ولا هذا فهو كسائر المباحات إعمالاً للمصالح المرسله أيضاً » (٣)

ويقول : « إن الشارع توسع في بيان العلل والحكم في تشريع باب العادات . وأكثر ما علل فيها بالمناصب التى إن عرض على العقول تلقته بالقبور ، فقهنا من ذلك أن الشارع قصد فيها اتباع المعاني لا الوقوف مع النصوص » (٤)

(١) صحيح مسلم ص ١٨٤ ج ٤

(٢) ابن عباس رضاه عنه

(٣) المواقات للشاطبي ص ٢٨٩ ج ٢

(٤) ص ٢٩٣ من نثر الجزء . والكتاب

(١) من خطبة لعمر بن العاص خطبها في مصر أيام ولايته الأولى عليها ، أوردها ابن عبد الحكم في فتوح مصر وأخبارها ص ١٣٩ طبع ليون وابن تقي بردي في النجوم الزاهرة ص ٧٣ — ج ١

الاسماعيلية

الملقبون بالحشاشين (١)

مقدمة

هذا بحث موجز لطائفة الاسماعيلية التي عرفت اخيراً عند أهل التاريخ بطائفة الحشاشين ، والتي تركت في تاريخ الاسلام في القرن الرابع الهجري أثراً كبيراً ، وتاريخ الاسماعيلية قديم يرجع الى عام ثمانمائة وأربعين لليلاد ، بعد أن انتشر الدين الاسلامي وساد كثيراً من الأقاليم والبلاد ، قام بانتشاره دعوة في أقاصي الجهات وأدائها يحاولون الخط من قدر الرسول ، ويختبرعون الأحاديث الملفقة اختراعاً يقلل من هبة الدين الاسلامي ، ويذل به من مستواه الرقيق ، وكان أنشط أولئك القوم وأكثرهم تحمساً ابن ديسان ، ويقال إنه الجد الأعلى لعبد الله المهدي الفاطمي (٢) صاحب الدعوة بأفريقية ، فقد كان يكره بني العباس ويود لخلافهم الزوال ، فبث دعائه في بلاد الفرس حوالي عام ٨٤٠ م حيث تبعه خلق كثير ، وألف كتاباً في الزندقة سماه «الميزان» وألف عن تبعوه عصاية سرية نسبت نفسها الى اسماعيل بن جعفر الصادق فسميت بالاسماعيلية ، ثم انتشر أتباعه بمرور الزمن في جزيرة العرب والشام وأفريقية ، وظلوا نحو قرنين ونصف قرن ، تسمى تعاليمهم في جسم الدولة الاسلامية كسريان السم في العروق ، حتى جعل منهم الحسن ، ابن الصباح ، أخيراً عام تسعين وألف لليلاد طغمة سياسية تقلب الممالك وتخرب العامر من الديار ، وتسفك الحرام من الدم ، وتعمل في مختلف البلدان سلباً ونهباً وقتلاً ، وتدمر تعاطي الحشيش حتى لقبوهم بالحشاشين وسماهم الفرنجة Assassins وأطلقوا هذا الاسم على كل قاتل سفاك ، وبقوا على تلك الحال

(١) كلمة «الحشاشين» تعبر بحرف جماعة القلة الاسماعيليين : والصواب «المشيشية» فهي الكلمة التي تطلقها عليهم الرواية الاسلامية المعاصرة . وهكذا يسميهم أقدم مؤرخي الحروب الصليبية من المسلمين مثل العماد الاصفهاني صاحب «الفتح القسبي» وشهاب الدين القسبي صاحب الروضتين (راجع الروضتين ج ١ ص ٢٥٨) (الرسالة)
(٢) هو عبيد الله المهدي الفاطمي لآب عبد الله (الرسالة)

وللشاطبي أشياء في غاية الجمال والابداع من هذا الصنف الواسع المحيط . وهذه النظرة الشاملة النافذة الى جوهر الدين وحقيقته الروحية لروحه الكلي الشامل ، وعلى رأس هذا الفصل فقرة هي الدستور الذي يجب أن يتوجه كل مفكر ديني يقول الشاطبي ايضاً : « قد تكون العوائد ثابتة وقد تبدل ومع ذلك فهي أسباب لأحكام تترتب عليها . . . والتبدل منها ما يكون متبدلاً في العادة من حسن إلى قبح وبالعكس . مثل كشف الرأس فإنه يختلف بحسب البقاع في الواقع . فهو لذوى المروءات قبيح في البلاد الشرقية . وغير قبيح في البلاد المغربية . فالحكم الشرعي يختلف باختلاف ذلك ، فيكون عند أهل المشرق قاذواً في العدالة ، وعند أهل المغرب غير قاذح ، واعلم بأن ما جرى ذكره هنا من اختلاف الأحكام عند اختلاف العوائد ، فليس في الحقيقة باختلاف في أصل الخطاب . لأن الشرع موضوع على أنه دائم أبدي لو فرض بقاء الدنيا من غير نهاية » (١)

ويقول سيدنا عمر بن الخطاب عن الرمل في الحج : « فيم الرملان الآن والكشف عن المناكب : وقد أظهر الله الاسلام ونفى الكفر وأهله ٤٠٠ » (٢)

وسرق جماعة لخطاب بن أبي بلتعة ناقة لرجل من مزينة . فلما أرسلوا إلى عمر بن الخطاب أقرؤا على سرقتها ، فأمر كثير بن الصلت أن يقطع أيديهم . ثم ردهم وقال : « إنهم يجمعونهم حتى إن أحدهم لو أكل ما حرم الله عليه حل له . ولم يقطع أيديهم » (٣)
ولما جاءت الجماعة والقحط في سنة ١٨ هـ أيام خلافة عمر بن الخطاب لم يقطع أيدي السارقين

نحن نستطيع أن نسير مع كل حضارة . وأن نأخذ من حضارة الغرب ما يفيدنا ونبتلنا ونبلق حياتنا باللقاح المجدد ، ولا نجد في روح الاسلام ما يصدنا عن ذلك .

ولكن المشكل هو في وجود الرجال الذين يفهمون روح الدين بالعقل ليقيظ الراسع الحمر المعارف حاجات العصر وتيارات الحضارة والذعن البشري ؟
محمود الشرقاوي
عالم من الأزهر

(١) ص ١٩٨ — ١٩٩ — من المواقفات ج ٢
(٢) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الفرج بن الجوزي ص ٩٢
(٣) أعلام الموقعين ص ٣٢ ج ٣